"مقومات الصورة في شعر"
علي بن الجهم

عباس المصري *

ملخص

ينهض هذا البحث بدراسة مقومات الصورة في شعر علي بن الجهم من زواياها المتعددة، إذ يسلط الضوء على هذه المقومات وعلاقاتها بعضها ببعض، فيدرس المقومات الحضارية والثقافية والدينية والسياسية والاجتماعية والفنية، ثم يعرج على اللغة المستخدمة في هذه المقومات من خلال النصوص المدروسة التي منحت الصورة زخماً بلاغياً يتناسب مع الألفاظ والمعاني التي جاء بها الشاعر، كما أظهر البحث أن هذه المقومات بعلاقاتها هي التي ميزت شعر علي بن الجهم عن غيره من شعراء عصره.

الكلمات الدالة: علي بن الجهم، شعر، مقومات الصورة.

مدخل

درست الأعمال النقدية الحديثة الأدب دراسة دقيقة متأنية، حيث ألغت النظرة التي تجزئ العمل الأدبي، ونظرت إليه نظرة متكاملة، وقد اهتمت هذه الدراسات بدراسة الصورة؛ لأنها تبرز العمل الفني وتنقل الفكرة والعاطفة من خلاله، فهي جوهر الشعر وأساس الحكم عليه[1]، وقد تناول الباحثون مفهوم الصورة وعرّفوها لغةً واصطلاحاً؛ لمعرفة انتقال اللغة من معناها العام إلى معناها الخاص الذي استعملت فيه بدقة ووضوح، دون غموض أو ضبابية في ذهن القارئ، فرسم الصورة بإطارها ومضمونها من أهم ما يربط المعنى العام، وقد جاء اهتمام القدماء بالصورة عند حديثهم عن المجاز، ولعل الجاحظ أول من أشار إلى ذلك في قوله " الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"[2] ولكن ابن طباطبا تحدث عن الصورة عند حديثه عن التشبيه " والتشبيهات على ضروب مختلفة فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيه معنى "[3]، وتناولها أبو هلال العسكري عند حديثه عن أقسام التشبيه، فقال:" تشبيه الشيء صورة وتشبيهه به لوناً وصورة " [4].

وقد اعتمد المحدثون على هذه التعريفات وانطلقوا منها وبخاصة بعد اتصالهم بالغرب، وتختلف اتجاهات تلك الدراسات باختلاف ثقافة الناقد، إذ أن النقد الحديث ينظر نظرة كلية للصورة، فهي" الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة في معناها الكلي والجزئي، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صورة جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية من الحدث الأساسي"[5].

أهمية دراسة الصورة في شعر علي بن الجهم:[6]

يتميز الشاعر عن الإنسان العادي بالقدرة المعرفية والذهنية التي تساعده في تقديم المعاني المجردة بالصورة الحسية المتخيلة مستخدما بذلك الصورة أداة لعمله، لذلك فإن التعبير بالصور أهم أدوات الشاعر بلا منازع[7]، وما يميز قصيدة عن أخرى، ويجعل قصيدة تحيا دون غيرها أو يجعلها تسمو على مثيلاتها، تلك الصورة الحية النابضة التي يمنحها الشاعر للسامع[8]، لذلك كان امرؤ القيس أول من تقدم على غيره في هذا المجال؛ فهو أول من بكى واستبكى وقيد الأوابد وشبه النساء بالبيض [9]، وتكمن أهمية الصورة في شعر علي بن الجهم في إقامة العلاقات التي تربطها، إذ أنّ أي قصيدة عنده ليست مجرد مجموعة من الصور، وإنما هي لبنة في البناء العام للقصيدة، ومن هنا تأتي أهمية دراسة مقومات الصورة؛ لأنها تتشكل من أجزاء مترابطة، كل جزء يدعم الآخر ويضيف إليه.

وهذا ما ميز شعر علي بن الجهم، بكثرة الصور والعناية في رسمها، فجاء شعره غنياً بها وكانت وسيلته الأساسية في صياغة شعره وبعض المقومات الجوهرية في معماره الفني، ولذلك يمكن القول إنّ التعبير بالصورة يُعَدُّ ظاهرة مميزة لشعره

* الجامعة العربية الامريكية، جنين، فلسطين. تاريخ استلام البحث 2011/10/10، وتاريخ قبوله 2012/1/19.

© 2012 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

في العصر العباسي. يضاف إلى ذلك أن القصيدة عنده مجموعة من الصور المبنية على الترابط العضوي، فينتقل بنا أحياناً من الصورة الجزئية إلى الصورة المركبة، في تأنٍ وروية، فلا يقدمها لنا سريعة، بل يستوفي جزيئاتها وتفاصيلها جميعاً، فتظهر لنا صورة دقيقة مليئة بالحياة والحركة، واللافت للنظر أنه يجمع بين الألفاظ ذات الجرس القوي والألفاظ ذات الجرس الضعيف، كما يلجأ إلى الاستعارة والتشبيه في الأعم الأغلب؛ لذلك اشتهر بكثرة الصور المستمدة من الحياة وواقعها.

مقومات حضارية:

كانت بيئة العراق بطبيعتها الجميلة الخلابة هي ميدان الصورة الحضارية التي استقى منها علي ابن الجهم مقوماً من مقومات الصورة، فقد وجدها مرتعاً لخياله وأفكاره، إذ كانت وحياً استلهم منها صوره؛ فرسم لها صوراً ناطقة، وألبسها حللاً تموج بالحركة والحيوية، فجاءت صورته تأسر السامع والقارئ بجمالها، وما ذلك إلا للحضارة التي بلغت ذروتها في عصر العباسيين ومكان ملكهم، يقول في قصر الواثق:

دارٌ تَحارُ العيونُ فيها وَلا
يَبْلُغُها الواصِفونَ إنْ وَصَفوا
لم تنتسِبْ قَبْلَهُ إلى أحَدٍ
ولا تَحَلَّتْ مِنَ الألى سَلَفُوا [10]

اهتم الشعراء في المجتمع العباسي المتمدن وأجوائهِ المفعمةِ بالازدهار الاجتماعي والتقدم العلمي والثقافي والتغيير الذي طرأ على هذا المجتمع، وراح يهتم بوصف القصور والرياض والمجالس والزهور وتدفق المياه وتصوير العواطف تصويراً جميلاً [11]، كل هذا جاء بلغة حضارية تماشي العصر العباسي الذي يمثل نقلة جديدة في حياة هذه اللغة من حيث الألفاظ والأساليب الأصيلة، فضروب الإبداع الفني، يضاف إليها الصورة الفنية التي كان يصب فيها الشعراء معانيهم وأخيلتهم لقد تغيرت وتطورت؛ بسبب التفنن الحضاري الذي لا يكاد يجمد على صورة يقف عندها أو يسرف في احترامها وتقديرها [12]. إنّ الطبيعة التي عاشها علي بن الجهم منحته خيالاً خصباً فقد انتقل من البداوة إلى الحضارة، لذلك عرف لغة البادية وجزالتها ثم راح يمنحها الصورة الحضارية التي عاشها، فنجده يقول في حضرة الخليفة المتوكل:

أَنْتَ كالكَلْبِ في حِفاظِك للوُدِّ
وكالتَيِّسِ في قِراعِ الخُطُوبِ
أَنْتَ كالدَّلوِ لا عَدِمْناَك دَلْوَاً
مِن كِبارِ الدِّلا كثيرْ الذُّنوُبِ[13]

كما أبدع في وصف الطبيعة الصامتة فبث فيها الحركة ومنحها الحياة والإرادة، حيث شبه السحابة بفتاة شابة تقودها أم عجوز مولهة بها هي ريح الصبا، فقال:

أَتتنا بِها ريحُ الصَّبا وكَأَنَّها
فتاةٌ تُزَجِيِّها عجوزُ تَقودُهُـــا
تميسُ بها مَيْساً فلا هي إنْ وَنَتْ
نَهَتْها ولا إنْ أسْرَعَتْ تَسْتعيدُها
إذا فارَقَتْها ساعة وَلِهَتْ بها
كَأمٍّ وليدٍ غابَ عنها وليدُها[14]

ولكنه لما عاش في بغداد وحضارتها انعكست هذه الحضارة على لغته وألفاظهِ وتعبيراته، فقال في قصيدته الرصافية المشهورة:

عُيُونُ المَها بَيْنَ الرُّصافةِ والجِسْر
جَلَبْنَ الهَوى منْ حَيْثُ أدْري ولا أَدْري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
سلوت ولكن زدن جمراً على جمرِ [15]

فبدت الصورة جميلة لانسجام الألفاظ وجرس الحروف وتقابل المعاني، فجاءت الصورة نابضة بالدّل والأنوثة، عامرة بالبهجة. إنّ الظاهرة الحضارية وما رافقها من ظهور الترف والغناء ومجالس الأنس واللهو، قد بدأت تظهر في شعر الشعراء الذين رافقوا هذه النقلة الحضارية في المجتمع العباسي، هذا المنحى يأخذ اتجاهات شتى في الشعر والأدب؛ بسبب اتساع الملكات الفكرية والثقافية للمجتمع بشكل عام والشعراء بشكل خاص[16]. كانت ظروف الحياة في بغداد مؤاتية للحياة الحضارية بسبب جمال موقعها واعتدال هوائها ووفرة الأنهار والبساتين الذي كان سبباً لغرس الأنس والمتعة واللذة، وكان الرخاء ووفرة المال والاستقرار من الأسباب التي دعت أهل بغداد إلى الإقبال على اللهو والأنس في مختلف ألوانه وضروبه.

إنّ المتأمل في الصورة الحضارية عند علي بن الجهم، يجد أن الشاعر منح الصورة حركة وحياة واستطاع أن يضعها بإطارها في نفس السامع لتحتل مكاناً منه، من خلال الرسم بالكلمات، يقول مصوراً قصر المتوكل:

ما زِلْتُ أسمعُ أنَّ الملوكَ
تَبني على قَدْرِ أخْطارِهـــا
فللرُّوم(ماشادَهُ) الأوَّلونَ
ولِلفرسِ مأْثورُ أحْرارِهـــــا
فلَما رأينا بناءَ الإمامِ
رأينا(الخلافة) في دارِهـــا
بدائِعَ لم تَرَها فارِسٌ
ولا الرومُ في طولِ أعمارِها
لو أن سليمانَ أدَّت له
شياطينُه بعضَ أخبارِهَـــا

لأيْقَنَ أن بني هاشمٍ

يُفَضِّلُها عُظْمُ أخطارِهـــــا

فلا زالتِ الأرضُ معمور بِعُمْرِكَ يا خيْرَ عُمَّارِها [17] كما نلاحظ الصنعة واضحة في شعر علي بن الجهم، فهو عندما يصف نافورة يجعلها في صورة جميلة، بحيث نحس بها أحساساً عميقاً ونكاد نراها أمام أبصارنا، فهو يجعلها فوارة ويجعل لها ثأراً في السماء ولهذا يرتفع ماؤها محاولاً الوصول إليها؛ لإدراك ثأره، ثم هي توصل الماء إلى السحاب تعويضاً لها مما أنزلته الأرض، يقول:

وَفَوارَةٍ ثَأْرُها في السَماءِ

فَلَيْسَتْ تُقَصَرُ عن ثأرهـــــا

تَرُدُ على المُزْنِ ما أَنْزَلَتْ

عَلَى الأَرْضِ من صَوْبِ مدرارها[18]

إنّ مثل هذه الأبيات تتفق مع ما قاله أحمد مطلوب عن الصورة: "فهي طريق التعبير عن المرئيات والوجدانيات لإثارة المشاعر وجعل المتلقي يشارك المبدع أفكاره وانفعالاته"[19]. كما تسربت المبالغةُ عند الشاعر إلى صورة الممدوح وإلى ما يصفه، ففي وصفه لبركة المتوكل نجده يصفها بأنها مباركة كما في قوله:

أنْشَأْتَهاْ بركةً مباركةً

فبـــاركَ اللهُ فـــي عواقِبِهـــا

حُفَّتْ بما تشتهي النفوُس(لها)

وحـــارَتِ الناسُ في عجائِبِهـــا

لم يَخْلُقِ اللهُ مثلها وطناً

في مَشْرِقِ الأرضِ أو مغارِبِها[20]

نلاحظ في هذه الأبياتِ قدرة الشاعر على جعل الألفاظ تعبر عن وجدانهِ وانفعالاتهِ وتنقل تجربته العاطفية للسامع بأسلوب فني مؤثر. إنّ الامتزاج الثقافي والعرقي الذي شهده العصر العباسي قد وجد صداه في شعر علي بن الجهم، فشعره يموج بهذه الحضارة التي شهدتها بغداد، ويلاحظ المتفحص في شعره أيضا أنه لم يترك لنا صورة حضارية جميلة إلا رسمها بالكلمات، وأرى أن ذلك يُعد وثيقة تاريخية، تساعد المؤرخين في رسم معالم الحياة التاريخية للعصر العباسي، يقول:

فلابن سُرَيْج والغريضِ وَمَعْبَدٍ

ودائِـــعُ في آذاننا لم تُبَـــدَّلِ

أوانِسُ ما فيهنَّ للضيف حِشْمَةٌ

ولا (ربُّهُنَّ) بالمهيبِ المُبَجَّلِ

يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قلَّ حياؤُهُ

وَيَغْفُلُ عنه وهو غيرُ مُغَفَّلِ[21]

ولكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الشاعر قال هذه الأبيات بعد رجوعه إلى بغداد من سجنه ونفيه إلى خراسان، فعندما رجع رأى إدبار الناس عنه وانصرافهم عن شعره، فراح ينظر إلى الحياة نظرة سوداء قاتمة، فأقدم على الحياة اللاهية العابثة عندما تجافاه الناس؛ لتجافي الخليفة عنه ونرى هذا الأمر ردة فعلٍ على الخليفة والمجتمع، ومع ذلك ففي أشعاره من الصدق الإنساني المشبع باللوم والعتاب. لم نكن لنسمع مثل هذا الشعر لولا الانفتاح الحضاري الذي شهده العصر العباسي على الأمم الأخرى وبخاصة الفرس والروم (لأن العصر العباسي قد رقت فيه الألفاظ وسلست ولم تعد نابيه؛ لأنها أصبحت تعبرعن صورة الحياة المترفة الناعمة المطعمة بألوان الحضارة وبأسلوب رائق سليم) [22].

ولا يغيب عنا أن الحضارة العربية في العصر العباسي، كانت قد تأثرت من هذا الجانب بالحضارة الفارسية التي تسربت إليها من بلاد فارس عن طريق الامتزاج بالعناصر الفارسية، وقد تأثر بعض الشعراء العباسيين وفتنوا بتلك الحياة الجديدة بحضارتها ولهوها من خلال أولئك الفرس الذين ظلوا متأثرين بحضارة قومهم وربما عملوا على تسريبها إلى الحياة العربية، فكان ذلك بمثابة الجسر الذي عبروا عليه لتحقيق غاياتهم في الهدم والنيل من العرب ودينهم.

فالامتزاج اللغوي والثقافي والاجتماعي ولّدَ حضارة أسهمت في رقي العرب في العصر العباسي وبالتالي أصبحنا نسمع من علي ما هو جديد في عصره، فهو يصف مركباً مائياً، ويعترف بأنه أعجوبة جاءت على العصر العباسي، ونرى أن هذا دليل على الاقتراض الحضاري والمشاركة الحضارية من الآخرين، فالأمم لا بُدَ من أن تشارك في صناعة الحياة وتسهيلها للإنسان، والأمة القوية هي التي تسيطر على غيرها حضارياً، يقول في وصفه:

عَجِبْتُ كلَّ العَجَبِ مِنْ سَيْرِ هذا اَلمْركَبِ

وماله عَيْنٌ ولا رُوحٌ جرت في عَصَبِ

فرسانُهُ الأَنباطُ مِنْ مَيْسانَ أهْـــلِ الرِّيَبِ

"بماء بانا" كُلُّهُمُ لا بِلِســـــانِ العَرَبِ[23]

لقد رقت الألفاظ وسهلت وابتعدت عن الغرابةِ والحوشية، ولا يعني ذلك أنها خلت من المعاني والدلالات؛ لأننا نجد في شعر شعراء العصر العباسي أن المعاني والصور قد اتسعت وتجددت وتعمقت على الرغم من سلاسة الألفاظ[24]، وبالتالي فقد كان شعره حافلاً بالجوانب الحضارية التي تعبر عن تطورات العصر وسلوكيات أهله، وما أكسبه الثراء والجاه لبعض الناس.أضف إلى حضارة العصر العباسي أن الشاعر تجول في مشارق الأرض ومغاربها يروي أبو الفرج أن علي بن الجهم رحل إلى خراسان ومصر والشام وأقام في كل منها زمناً،

وهذا ما أكسبه أ لواناً أخرى من الحضارة التي أمدها ألفاظاً في قصائده [25].

مقومات دينية:

يُعَدُّ العصر العباسي عصر الجدل والمناظرات الكلامية الفقهية واللغوية، ولكن علي ابن الجهم ابتعد عن هذا الجدل وبخاصة عند المعتزلة وغيرهم، ومال إلى أهل الحديث الذين يمثلون الفكر العربي في فهم الدين[26] وقد صور قدر كبير من شعره دفاعه عن مذهب أهل السنةِ وعن حق العباسيين في الخلافة[27]. إنّ المتمعن في شعر علي بن الجهم الديني، أو المعتمد على الصورة الدينية يلاحظ أنّ مقومات الصورة تمثلت في منح الخليفة صفات خاصة من الله سبحانه وتعالى، وكأن الله هو الذي فوّض العباسيين في الخلافة؛ لأنهم أهل لها، يقول:

إليكَ خليفةَ اللهِ استَقَلَّتْ

قلائِصُ مِثْلُ مُجْفِلةِ النَّعامِ[28]

خاطب الشاعر خليفة الله، وهو المعتصم بالله، بالضمير الكاف، وما هذا إلا للقرب الروحي الذي يتمناه كل إنسان مسلم، ويقول مكرراً المعنى ذاتهِ:

وأنت خليفة الله المعلى

على الخلفاء بالنعم العظام[29]

لقد كان الباعث الديني أقوى البواعث وأخطرها، وأكثر فاعليه وتأثيراً في نفوس الناس والشعراء وعقولهم، فقد كان عصر الشاعر من أكثر العصور اضطراباً، ازدحمت فيه الآراء وكثرت الفرق والعقائد والمذاهب واشتد النقاش كثيراً، وكثر أصحاب الشك الخارجين على الإسلام وكان لهذه العقائد صدىً واسع في الشعر وعلى ألسنة الشعراء ومنهم علي بن الجهم.

نرى أن فكرة الجبر التي منحها الأمويون لشعرائهم وطلبوا منهم إذاعتها بين الناس، نجدها عند علي بن الجهم، فقد أسند الشاعر الخليفة إلى الله، وكأنه مفوض من الله وعلى الناس السمع والطاعة اعتماداً على قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)[30]. ولكنه أضاف هنا إلى فكرة الجبر مقوماً آخر من مقومات الصورة الدينية وهو العدل والصلاح والتقى، وأن محبتهم تغفر الذنوب، يقول في المعتصم بالله:

مَوَدَّتكم تُمَحِّصُ كلَّ ذَنْبٍ

وَتُقْرَنُ بالصَّلاةِ وبالصِّيامِ[31]

وكان يربط عنصر الدين بالقضايا السياسية التي يقوم بها الخليفة في محاربة الأعداء، ولم يكن ليفعل ذلك لولا حرصه على الدين الإسلامي، يقول:

ورافِضَةٍ (تقولُ) بِشِعْبِ رَضْوى

إمامٌ خَـاب ذلِكَ مِنْ إمامِ

إمامِي مَنْ له سبعونَ ألفاً

مِن الأتـراكِ مُشْرَعَةَ السِّهامِ

إذا غَضِبوا لِدينِ الله أرْضَوا

مضارِبَ كلِّ هِندِيٍّ حُسامِ[32]

ثم قلب الصورة إذ جعل الخلافة هي التي تطلب الواثق وليس الواثق هو الذي يطلبها، يقول:

اللهُ يَعْلَمُ أنني لكِ عاشقٌ

عِشْقَ الخِلافَةِ للإمامِ(الواثِقِ)[33]

وقد جاءت مقومات الصورة الدينية عند علي بن الجهم من منطلق الإخلاص لمذهب العباسيين والولاء لهم خلال الدفاع عنهم وعن أحقيتهم في الخلافة، وفي المقابل راح يسلب خصوم العباسيين هذه الصفات التي تؤهلهم للخلافة، يقول:

لأَنْتُم يا بني العباسِ أَولى

بِميراثِ النبيِّ من الأَنامِ

تُجادِلُ سورةُ الأنفالَ عنكم

وفيها مَقْنَعٌ لِـذوي الخِصامِ

وآثارُ النبيِّ وَمُسْنَداتٌ

صَوادِعُ بالحَلال وبالحَرامِ [34]

كانت الدعوة العباسية تقوم على فكرة دينية ذات شقين: الأول إعادة سلطان الدين إلى مكانه من الحياة الإسلاميةِ، والثاني: حق موروث يجب أن يعود إلى أهله، وهذا ما قامت عليه الدولة العباسية على أساس النص والتفويض في ولاية أمور المسلمين أو ما يشبه المعروف في أوروبا بالحق الإلهي [35]. لقد تلاعب الشاعر بالصورة، إذ ربط بين صحة الخليفة واستقامة الرعية وطيب حالها، ومرض الخليفة بفساد الرعية، يقول:

فَهنيئاً لِلمُلْكِ صِحَّةُ راعيـ

ـهِ ولِلدِّيـنِ عِزُّهُ المَوْصـولُ [36]

وجاءت أهمية الصورة هنا، لاستخدام الشاعر الصفات الحسية لها (إذ إنّ ما يعطي للصورة فاعلية ليس حيويتها كصورة بقدر ميزاتها الحادثة ذهنية ترتبط نوعياً بالإحساس) [37]. وهذا التحول في نفس الشاعر ينسجم مع واقع حال الخليفة، فحين كان الخليفة مريضاً كانت خشية الشاعر كبيرة على الناس من ظلم الظالمين وجهل الجاهلين، وحين عاودت الصحة للخليفة اطمأن الناس واستراحت نفس الشاعر، فقال:

أنت ميثاقُنا الذي أَخَذَ اللـ

ـهُ علينـا وَعَهْدُهُ المسـؤولُ

بك تزكو الصلاةُ والصومُ والحـ

ـجُ ويَزكو التسَّبيحُ والتَّهليـلُ[38]

اعتمد الشاعر في تجربته الدينية مع الخلفاء البحور ذات

النفس الطويل وهذا يعطي الشاعر أكثر من فرصة لخلق تجربته أو إعادة خلقها لرحابتها من جهة ولأن تفعيلاتها متغايرة لامتجانسة، حتى أن قوافيه قد تنوعت إذ ركب في قوافيه مركباً صعباً، فكان يعرف من يتوجه اليهم بشعره وكيف أن آذانهم مرهفة وعندهم القدرة على التقاط تموجات القافية.

لقد كان لتمسك خلفاء بني العباس بهذا الحق الشرعي وحرصهم عليه وعلى أن تصطبغ خلافتهم بصبغة الدين أن صار الشعراء يحلونهم في شعورهم محل التقديس ويشنون عليهم بصفات التقوى وحماية الدين والحفاظ عليه وأنهم يستمدون سلطانهم من الله ويحكمون بأمره ويتركون الهوى ويتبعون سبيل الحق[39]. وما كان للشاعر أن يبالغ هذه المبالغة الشديدة في الربط بين صحة الخليفة وصحة الدين والعقائد والعبادات، إلا لأنه كان يستشعر ضرباً من ضروب المرض من هيمنة المعتزلة على رقاب الناس قبل عهد المتوكل فضلاً عن مخاوف أخرى كأن يعلو صوت الشيعة وتعلو منزلتهم وهو الذي يكرههم [40].

جاءت مقومات الصورة التي اعتمد عليها الشاعر في رسم صورة الخليفة معانيَ عامةً يمكن أن تقال في أي شخص آخر، فهو عبارة عن ثناء على الممدوح – الخليفة – الذي أعز الإسلام بمنهج الدين الإسلامي القويم، وهو الذي حارب المفسدين والطامعين في الخلافة، ثم إنّ العباسيين أهل الخلافة وأحق بها، وأن الله أعطاهم إياها لصلاحهم لها، يقول في المتوكل:

نَحْنُ في ظِلِّ أرْحَم الناسِ بالنا
سِ وأولاهُمُ بِبَأسٍ وجُـــــودِ
صفوةُ الله وابنُ عَمِّ نبِيِّ اللـ
ـهِ وابنُ المهديِّ وابن الرشيدِ
يا بني هاشمِ بنِ عبدِ مَنـافِ
نِسْبةِ حُبُّها من التَّوحيـــــدِ
أنتُم خيُر سادةٍ يا بني العبَّـا
سِ فابقوا ونحنُ خيرُ عبيدِ[41]

لقد اعتمد الشاعر كثيراً على الأصوات التي توحي بالتفشي والصفير والحفيف مثل أصوات السين والصاد والحاء، فجاءت قوافيه قوالب لمعانيه. والملاحظ على شعر علي بن الجهم أنه حافل بالجوانب الإنسانية، يتناولها في صدق ومعاناة يكشف فيها عن كثير من أخلاقيات العصر وسلوكيات أهله. كما يشيع في شعره ذكر الكتاب والسنة والحديث والأثر وروايته وإسناده، وذلك من مثل قوله:

واسمع إلى غَرَّاءَ سُنِّيَّةٍ
يَسْطَعُ مِنها المْسكَ والعَنْبَـــرُ
موقِعُها مِنْ كُلِّ ذي بِدْعَةٍ
مَوْقِعَ وَسْمِ النَّارِ أو أكثَـــرُ[42]

وشهد الصراع العنيف الذي دارت رحاه أيام المأمون والمعتصم والواثق بين أهل السنة والمعتزلة، ووقف منه موقفاً إيجابياً واضحاً، فانحاز إلى أهل السنة ونافح عن رأيهم وخاصم أعداءهم، وهذا ما جعل إطلاع الشاعر على القرآن الكريم إطلاعاً يسري في شعره سريان الروح من الجسد، ويتمشى في قصائده تمشي الدم في العروق، فاقتبس من آياته المحكمات وأكثر من ذلك، يقول:

وانفَضَّتِ الأعداءُ من حَوْلِهِ
كَحُمُـرٍ أنْفَرَها قَسْـــــــوَرُ[43]

وهذا مقتبس من قوله: (كأنهم حمرٌ مستنفرةٌ فرت من قسورة) [44] وفي قول آخر قال:

فَأَمَّرَ اللهُ إمامَ الهُدى
واللهُ مَنْ يَنْصُـــرُهُ يُنْصَـــرُ[45]

وهذا مقتبس من قوله: (إنْ ينصركم الله فلا غالب لكم)[46].

تمتاز ألفاظ الشاعر بالسهولة والبساطة وتعبر عن أفكاره مباشرة بلا تعقيد وتؤدي هذه المعاني المباشرة ألفاظاً سهلة موحية قريبة من لغة الحياة اليومية، أو هي بالعقل منها، فأصبحت جزءاً من ثقافة مجتمعة ومرآة تنعكس عليها أفكاره وعواطفه. ولا غرو فإنه واحد من أهل السنة، ورجل من رجال الحديث، وخصم من خصوم المعتزلة، فهو محباً للعلم مقبلاً عليه، متمكناً من القرآن وبيانه.

كان واضح العقيدة في الدين، بيّن المذهب في السياسة، حدد اتجاهه بوضوح، والتزم به عن قناعة وتعرض في سبيله لما يتعرض له أصحاب العقائد، وظل وفياً له إلى أن مات، وهو وإن انحرف عن اتجاهه لنزوة من نزوات النفس، أو تأثر بنازلة من نوازل الدهر، لا يلبث أن يعود إلى خط سيره الأصيل وهو أقوى عزماً، وأصلب قناة. إن تركيز الشاعر في اهتمامه على تبني الخليفة لمذهب أهل السنة، وقضاءه على محنة خلق القرآن جعله يطنب في أمر تدين الخليفة، كما بالغ في إعلان تسنن الخليفة وألح عليه، فصوره بأنه أقوم خلق الله وأنه من أتباع الرسول بخاصة في حماية الدعوة ونشرالرسالة، فهوالذي أعاد للخلافة مجدها الديني وعزها التاريخي، فيقول:

وأَقْوَمُ خَلْقِ الله للهِ بالذي
يُحِبُّ وَيَرْضى جَعْفَرُ المُتَوَكِّلُ
عنايَتُهُ بالدين تَشهَد أنَّهُ
بِقَوْسِ رسولِ الله يَرْمي وَيَنْصُلُ
أعادَ لنا الإسلامَ بَعْدَ دُروسِهِ
وقامَ بأمرِ اللهِ والأَمرُ مُهْمَلُ[47]

لم يكتف الشاعر بهذا الكم البسيط من الاسقاط الديني لهذا الخليفة، بل جعله القدوة التي ألفت بين المسلمين في عقله كما اتسمت أخلاقه بالنبل والألفة التي جعلته يتصرف وأنه ظل الله في الأرض بأخلاق عالية وتسامح جم ساعده على حماية الإسلام من الشرك والمشركين قبل أن تدرس معالمه، فيقول فيه مادحاً وشارحاً لسيرتهِ لما استخلف، حيث عُدّ هذا الشعر من أول ما قيل فيه من الشعر:

واللهِ لو أمْهَلَنا ساعـةً
ما هَلَّلَ الناسُ ولا كَبَّـــروا
وأظهَرُوا أنَّهـــمُ قُـدّرٌ
قُدْرَة من يَقْضي وَمَنْ يَقْدُرُ
وشتموا القوم الذين ارتضى
بهم رسولُ اللهِ واستكبَرُوا
ووافَقُوا مِنْ بَعْدِ ما فارقـوا
وأقبلوا من بعد ما أدبروا[48]

فهنا يلجأ إلى أسلوب التوكيد بالقسم، بلفظ الجلالة "الله" وربما يعود ذلك لحركة ثورية قائمة على الخليفة، فهذا القسم جاء متبوعاً بحالةٍ من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار من خلال جرس الألفاظ المفخمة، إضافة إلى ألفاظ الطباق، فحمايته للدين والإسلام ودفاعه عنهما لم يكن اعتباطا أو عفو الخاطر إنما للثقة التي أعطي لها من الأمة التي حكمها، فرأت فيه خير ناصر وناصح لهم، يقيهم شرور الكفر والمشركين، يحفظ لهم دينهم وعقيدتهم ويزيل طريقهم عن المعتزلة الذين جبروا إطفاء سنة رسولنا محمد(صلى الله عليه وسلم)، فيقول:

مازال مذ وليَّ الخِلا
فَةَ وارْتَدى برِدائِها
متوكِّلاً فيها علـى
من خَصَّهُ بِسَنَائِها
تُدْنيه أُمَّةُ أحْمـدٍ
لِلثأر من أعدائِها
زارٍ على سُنَنِ النبـ
يِّ يَجُدُّ في إطفائها[49]

إلا أنه حين وصف المتوكل وخلافته لم يغفل ذكر الحياة التي سبقته وما كان فيها من تعدٍ على الناس وأموالهم، وطمس دعوة الإسلام التي جاء بها سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فيقول في ذلك وقد وصف استبداد ابن الزيات خلال حكمه للناس وتسلمه وزارة في الخلافة، فقال فيه:

مِن بعد ما طَعَنَتْ قرو
نُ الشِّرك في أحشائِها
وتَحَكَّمَ الزيَّاتُ في
أموالِها وَدمائِها [50]

لقد كان لنوع الحكم العباسي أثر كبير في اصطباغ شعرالمديح بهذا اللون الحزبي أوالمذهبي، فالحكم العباسي قام على أساس دعوة دينية مؤداها أن حق العباسيين الشرعي في الخلافة يستند إلى وراثتهم لجدهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – وصاحب الحق الشرعي بعده؛ لأنه عمه ووارثه وعصبته [51]، فقد اعتمدوا في هذا الفكر على قوله تعالى:" وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم "[52] كما لم يغفل عمر بن فرج الرخجي حيث نعته بالأعور الدجال، ويعاند الله في أمور عديدة، ويقذف المحصنات الشريفات العفيفات من المسلمات في ذلك العهد، فيقول فيه:

والرُّخَّجُي الأعْورُ الدَّجـ ـالُ مِنْ أُمَرائِهـــا
يُمضي الأمورَ مُعانِداً لله في إمْضائِهـــا
يغري بقذف المحصنا تِ وليس من أبنائها[53]

لذلك نرى أن هوس ابن الجهم قد وافق هوس خليفته المتوكل؛ لأنه قرّب أهل السنة ونكّل بالشيعة فاستبشر الشاعر خيراً بخليفته فراح يمدحه في قوله:

قالوا أتاك الأملُ الأكبرُ
وفازَ بالمُلكِ الفتى الأزهرُ
واكتستِ الدنيا جمالاً بهِ
فقلتُ قد قـام إذاً "جعفرُ"[54]

بالرغم من فطنة الشاعر وذكائه وعلمه بأمور الشعر، إلا أن أسلوبه اللغوي قد بدا ضعيفاً،

ونلاحظ أن بعض الأبيات الشعرية فيها نوع من الركاكةِ اللغوية، ويبدو أن هذه الركاكة جاءته لأنه لم يعتمد على إعادة النظر في شعره، فكان شعره عبارة عن دفقات روحية عقدية تريد إيصال الفكرة مباشرة، ولو أنه أعاد النظر في شعره فهذبه ونقحه لاجتمع له من نفاسة المعنى وطرافته وسلامة الأداء ولطافتهِ. واللافت للنظر أن الخلاف الذي حصل بينه وبين المتوكل بسبب الوشاة وأدى إلى حبسهِ في النهاية أن الشاعر لم يتغير ولاؤه لأهل السنة ولم يحد عن الخليفةِ أو موالاتهِ.

مقومات ثقافية:

يعد العصر العباسي من أرقى عصور الأدب العربي؛ لأسباب عدة جعلت منه عصراً ذهبياً مختلفاً عن بقية العصور، ولقد سار علي بن الجهم في ركب هذا العصر، كما حرص على تثقيف نفسه ثقافة تماشي ثقافة عصره، تعددت منابعها وتنوعت مصادرها، ففي زمانه كانت بغداد حاضرة الدنيا علماً وأدباً وحضارة، وربي في بيت علم وفضل، إذ كان أخوه الأكبر

محمد بن الجهم من أنداد الجاحظ، يجالس المأمون ويناظر الزنادقة بحضرته، وكان جامعاً بين ثقافتي العرب والفرس[55].

إنّ التفاعل الثقافي بين العراق والأمم الأخرى، انعكس على مجتمع ذلك العصر، فاستقرت طاقاته وقواه الكامنة، وكان هو يمر بحالة من النهوض الثقافي العلمي، حيث كان للقرآن والدين الإسلامي أثر في نشوء هذه الحالة التي التقت مع ما نتج من تفاعل مع الثقافات الأخرى [56] ففي هذا الجو الثقافي الذي عبقت فيه طيوب المعرفة، وتفتحت في رحابه كنوز الثقافة، راح يروي الشعر ويحسن التمثّل به في المواقف الملائمة، إذ يقول في العلم والحث عليه:

إذا لم يَشِبْ رأسٌ على الجهلِ لم يكنْ
على (المرءِ) عارٌ أن يَشَيبَ وَيَهْرَما[57]

ويكرر المعنى ذاته في ذم الجهل والابتعاد عنه:

لَمْ تَنْقُصُوه وقد ملكتم ظُلْمَهُ
ما النَّقْصُ إلاّ أَنْ يكونَ جَهُولا[58]

حيث يؤثر مجالسة العلماء ومذاكرة الأدباء، فيصف الجلسة مع هؤلاء العلماء بأنها أغلى وأثمن وأشهى مما حفلت به الدنيا من جمال وزخرف فيقول:

لجلسةٌ مع أديبٍ في مذاكرةٍ
أنفي بها الهّمَّ أو أستجلُب الطربا
أشهى إليَّ من الدنيا وزخرفها
وملئِها فضةً أو ملئِها ذهبا[59]

وكان عالماً بالشعر وفنونه قديمه ومحدثه، واسع الرواية له، بصيراً بنقده، يفاضل بين الشعراء ويحكم بينهم[60]، ويبدو أن الشاعر كان يقرأ ويكتب، بل وله تجربة فيهما، روى الأصفهاني عنه فقال: (... إنّ أباه حبسه في الكتاب وهو صبي فكتب إلى أمه شعراً...)[61] ويضيف الأصفهاني فقال: "... حدثني عيسى بن أبي حرب، قال حدثني علي بن الجهم، قال: حبسني أبي في الكتاب، فكتبت إلى أمي:

يا أُمتا أفديك من أُمِّ
أشكُو إليكِ فَظَاظَة (الجَهْمِ)
قد سُرِّحَ الّصبيانُ كُلُّهُمُ
وبِقيتُ مَحصوراً بلا جُرْمِ[62]

نلاحظ جمال الزخرفة البيانية واضحة على اختلاف أنواعها في شعر على بن الجهم، من تشبيه واستعارة وطباق، فهذه الخصائص التي تمتاز بها لغة ابن الجهم وتميز أسلوبه حتى في أيام بؤسه وسجنه وألمه، وكذلك في عهد استقراره النفسي بعد خروجه من السجن، وما يأتي من هذه الزخارف على لسانه، يأتي عفو الخاطر فلا تكلف فيه، لذلك نراه في موقف آخر يمدح الكتاب ويثني عليهم كما في قوله:

سميرٌ إذا جالسته كان مسلياً
فؤادك مما فيـــه من ألم الوجـدِ
يفيدك علماً أو يزيدك حكمة
وغير حسودٍ أو مصر على الحقد
ويحفظ ما استودعته غيرغافل
ولا خائن عهداً على قدم العهد[63]

يقول فيه شوقي ضيف إنه: " كان يذهب إلى الكتاب ويتعلم الحساب والنحو والعروض والقرآن والحديث والشعر، وكان يختلف إلى حلقات المتكلمين وربما اطلع على شيء من علوم الأوائل صنيع لداتهِ في عصره"[64]. فإطلاع الشاعر على القرآن الكريم جعله يسري في شعره سريان الروح في الجسد، ويمشي في قصائده تمشي الدم من العروق فاقتبس من آياته المحكمات وأكثر من ذلك في مجالات مختلفة منها حديثه مع المتوكل كقوله:

وانفَضَّتِ الاعداءُ من حولهِ
كَحُمُرٍ أَنْفَرَها قَسْوَرُ[65]

وهو مقتبس من قوله تعالى في سورة المدثر: (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) [66]

ويخاطب المتوكل في موقع آخر يمدحه فيه فيقول:

يا وارث الأرضِ الذي أصبحتْ
أقطارُهـــــا منْ نورِهِ تَزْهَــرُ[67]

وهو مقتبس من قوله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديّ الصالحون)[68]. إلا أنه وفي معرض موازنته بينه وبين أعدائه الذين سعوا به لدى الخليفة، يقول:

وَلَتَعْلَمُنَّ إذا القلوبُ تَكَشَّفَتْ
عنها الأكِنَّةُ مَنْ أَضَلُّ سبيلا[69]

وهو مقتبس من الآية الكريمة: (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) [70].

لقد أكثر الشاعر في شعره ذكر فحول الشعراء، متحدياً لشعرهم، يؤكد اتصاله بدواوين هؤلاء الشعراء، ونهله مما كتبوا ومحاولة بزهم وهذا يدل على مدى ثقافته وسعة أفقه، فيقول في افتخاره بشعره وتطاوله على امرىء القيس:

شوارِدُ إنْ لقِيتَ بهنَّ جَيْشاً
صَرَفْنَ مَعَرَّةَ الجيشِ اللُّهامِ
وإن نَازَعْتَهُنَّ الشَّرْبَ كانت
مُداماً أو ألذُّ مِنَ المُــدامِ
يُثْرِنَ على أمرىءِ القيسِ بن حُجْرٍ
فما أَحَدٌ يقوم بها مقامي[71]

إن الثابت تاريخياً أن الشاعر جالس العلماء والأدباء، وبدت

شاعريته تظهر في سن مبكرة، وقد تمكن شاعرنا من العربية وعلومها الإسلامية، وكان من نصيبه أن جمع الثقافة السابقة بالحاضرة، فظهرت طاقاتهِ الإبداعيةِ الموجه دينياً وقواه الكامنةِ، ولم يكن ذلك إلا للدراسات التي أعطت اهتماماً واضحاً للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكل هذا ظهر في شعرعلي بن الجهم، فالمتأمل في بعض الأبيات يراها وكأنها مستمدة من القرآن بنصها ومعناها والأدلة على ذلك كثيرة.

مقومات سياسية:

قد يكون من الصعب على الدارس لشعره أن يفصل بين السياسة والدين؛ لأنهما اختلطا وامتزجا لدى المتوكل نفسه " فهو قد عمل على تلافي الفرقة التي أحدثها المعتزلة في صفوف الأمة بما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق، وقد استطاعوا أن يحملوا المأمون والمعتصم والواثق على اتخاذ هذا الرأي مذهباً رسمياً للدولة ومعاقبة كل من يخالفه من الفقهاء والمحدثين" [72].

بدأ التزام الشاعر في شعره السياسي المتعلق بالصراع الذي كان يدور بين العباسيين والطالبيين على الخلافة، فقد كان متشيعاً لآل العباس منحرفاً عن خصومهم– الطالبيين – فكان يصرح (بأن حبه لبني العباس لم يكن رغبة في النفس أو ميلاً في الفؤاد، إنما هو أساس من أسس العقيدة، وركن من أركان الإسلام، فيباهي بخراسانيته أشد المباهاة) [73] فيقول:

أنتم خيرُ سادة يا بني العبا
سِ، فابقوا ونحنُ خيرُ عبيدِ
نحنُ أشياعكم من أهلِ خراسا
نَ أولوُ قوَّةٍ وبأسٍ شديدِ[74]

إن المقابلة في الصورة بين أنتم (بنو العباس) ونحن (الشعب) الذي ينتمي إليه الشاعر نجد فيها ما يخفي إدراك المضمون الشعوري عند الشاعر، بالاعتماد على تشكيل الصورة وعلى المخزون اللا شعوري، وهنا لانتعامل مع الصورة على أساس دلالتها الظاهرة المباشرة وأنما علينا الدخول فيما وراء الظاهر. تكمن الدلالة في كلمة (خير) في الشطرين بأنها تعطي الدلالة الايحائية من خلال المقارنة والمقابلة في (خير سادة) و(خير عبيد)، فالثانية تدل على الطاعة المطلقة لخيرالسادة، ولفظة العبيد توحي بالانقياد التام والمطلق لهم لا عن قهر وإنما رغبة وإرادة وتسليما.

فهو لم يقف في تشيعه لبني العباس عند حد إعلان الولاء المطلق والمباهاة، إنما أخذ يحتج لهم على خصومهم ويؤيد حقهم بالبراهين معتمداً على كتاب الله وسنة رسوله، فيقول:

لأَنْتُم يا بني العباس أَوْلى
بميراثِ النبـــيِّ من الأَنـــامِ
تُجادلُ سورة الأنفالَ عنكم
وفيها مَقْنَعٌ لذوي الخِصـــامِ
وآثارُ النبيِّ وَمُسْنداتٌ
صوادِعُ بالحَلالِ وبالحرامِ[75]

فهو في هذه الأبيات يؤكد أحقيتهم في الخلافة أولاً، فيدعم ذلك بالإشارة التي وردت في آية من سورة الأنفال: (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فؤلئك منكم، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إنّ لله بكل شيء عليم)، [76] ثم يزيد في تأكيده إلى تلك المعاني أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهو لم يقف عند حدود بذاتها للاحتجاج لبني العباس أو عند الكتاب والسُنة بل نجده قد سار بعيداً إلى تاريخ البيت الهاشمي في جاهليته وإسلامه، فاصطفى منه ماكان للعباس من مفاخر أهمها سقاية الحجيج، وجعل ذلك حجة في تفضيل بني العباس على الطالبيين، فقال:

لنا في بني العباسِ أكرَمُ أُسْوَةٍ
فهم خَيْر خَلْقِ اللهُ طُرًّا وأَفْضَلُ
أليستْ لهم عند المقامِ سقايَةٌ
مُكرَّمةٌ تُروي الحجيجَ وَتَفْضُلُ[77]

لقد ارتبطت الصورة بموقف من الحياة ودلت على خبرة الشاعر ونظراته الدقيقة إلى دقائق الأمور، بذلك أصبحت الصورة تنقل مشهداً حياً [78].

مع أن تشيع ابن الجهم لبني العباس لم يكن وليد اتصاله بالمتوكل، إنما هو مذهب التزمه طوال حياته، وجاهر به كلّ خليفة عاصره، فيقول في الواثق:

أيها الواثْق باللهِ
لقد ناصَحْتَ رَبَّـــكَ
أَصْبَحَتْ حُجَّتَكَ العُليـ
يا وحِزْبُ اللهِ حِزبَكْ[79]

لقد غالى بعض من كتب عن علي بن الجهم في أمر تعصبه على أمير المؤمنين على يد بن أبي طالب، فهذا ابن الأثير في معرض حديثه عن المتوكل يقول:" وكان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلي، منهم علي بن الجهم الشاعر[80] ويقول عنه المسعودي:" وكان علي بن الجهم السامي مع انحرافه عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وإظهاره التسنن مطبوعاً".[81] إلا أن الشواهد الشعرية التي وردت في ديوانه ومن مقدمة الديوان تشير بالرغم من تشيع الشاعر لبني العباس واحتجاجه لهم، إلا أنه كان يصون لسانه أشد الصون عن تناول علي رضي الله عنه بما لا يليق بمسلم مثله، فقد نجده في أكثر من موقف يشير إلى ذلك، فهو حين عرض الخلافة علي في أرجوزته التاريخية تناوله في كثير من

الإجلال والإعظام، فيقول:

وَفُوِّضَ الأمرُ إلي علي
الهاشميّ الفاضل الزكـي
فقام بالأمرِ سنين أربعا
وتسعة من الشهور شرعـا
ثم مضى مستشهداً محموداً
عاش حميداً ومضى مفقودا[82]

ونلاحظ أن ضعف التراكيب جاء من سيطرة الفكرة المشبعة في المخزون الذهني من خلال حبه لبني العباس، حتى كأننا نقرأ كلاماً لا صورة شعرية فيه، وإنما هو أقرب إلى تكرار صفات خاصة منحها لبني العباس. إن تشيع ابن الجهم لبني العباس لم يكن رهباً أو رغباً، إنما كان مذهباً له يؤمن به وعقيدة ينافح عنها، وهذا ما دلته أحداث التاريخ التي تشير أن الشاعر قد تعرض في خلال علاقته مع المتوكل شر ما يلقاه المرء من مصادرة ونفي وصلب إلا أنه حين قتل الخليفة، توجه الشاعر إلى بني العباس بنداء حزين يعاتبهم فيه ويرثي المتوكل من جانب أخر، فيقول:

بنو هاشمٍ مِثْلٌ النجوم وإنَّما
مُلُوك بَني العباسِ مِنها سُعُودها
بني هاشمٍ صبراً فكلُّ مُصيبةٍ
سَيَبْلى على طُولَ الزمان جَديدُها
عَزيزٌ علينا أنْ نرى سَرواتِكُمْ
تُقَرى بأيــدي الناكثين جُلُودُهـــا
ولكِنْ بأيديكُمْ تُراقُ دماؤُكُم
وَيَحكُمُ في أرحامِكُمُ من يَكيدُها[83]

وما زاد الأمر صعوبة في ذكره للموالي من عسكر الخليفة الذين تخلوا عن إمامهم في ساعة المحنة، فنقضوا عهده الذي في أعناقهم، ونكلوا عن الثأر له، فيقول في ذلك:

كأنَّهُمُ لم يعلموا أنَّ بيْعَةً
أحاطَتْ بأعناقِ الرِّجالِ عُقُودُها
وباتَتْ خبايا كالبَغايا جُنُودُه
وفي زَوْرَقِ الصَياد باتَ عميدُها
فيا لجُنُودٍ ضَيَّعَتْها ملوكُها
ويا لملوكٍ أسلَمَتْهـــا جُنُودهـــا
أيُقْتَلُ في دار الخلافةِ جعفرٌ
على فُرْقَهٍ صَبْراً وانتم شُهُودُها[84]

إن الثقافات المجاورة لبغداد مثل اليونانية والفارسية والهندية تركت الأثر الكبير على معاني الشعر العباسي وصوره وألفاظه وتشبيهاتهِ، وبخاصة اليونانية؛ لأنها أمدتهم بالفكر الفلسفي والمنطق، فنلاحظ هذا واضحاً في البيت الثاني، فالصورة الفنية قد حوّلت الألفاظ الحضارية (زورق الصياد) إلى كثافة معنوية مبتكرة وخيال مبدع.

مقومات اجتماعية:

كان علي بن الجهم يمثل صورة صادقة من الفتوة والظرف التي شاعت في العصر العباسي، لما لهذه الصفات من مدلول واضح في أذهان المجتمع العباسي، فرسم لنفسه مجموعة من القيم التي ترسم شخصيته وتؤكد التزامه بالعادات والتقاليد التي شكلت شخصيته، فنجده ماثلا في العديد من الصفات التي توحي بالأصالة والتراث، فهاهو يصطفي أخدانه من بين الفتية الأخيارالذين اتسموا برجاحة العقل وعفة اللسان وحسن معاشرة الجليس فيقول:

وليلـةٍ كَأنّها نـهارُ — سَهرْتُها وفِتْيَةٌ أخيارُ
لا جاهلٌ فيهم ولا خَتَّارُ — ولَا على جليسه هَرّار
لهوُهُم الأسمار والأشعارُ — وَمِلْحٌ تُقْدَحُ منها النارُ
بِمِثْلِهم تُعاقَرُ العُقارُ — وَتَمْتَعُ الأسْمْاعُ والأبْصارُ
وَتُدْرَكُ الآمالُ والأوطارُ[85]

فنجده قد اختار أصدقاءَه من الأخيار الذين يزينهم العقل وديدنهم المنطق والعلم والحديث المفيد فهو لا يجامل أو يصاحب إلا من كانت صفاته من أمثال هؤلاء. كما يعتبر من أبرز من عرف عنه حبه للكرم وأهله، كما يجد في الهوى خلقاً عظيماً يسمو إليه كرام الناس، فيقول في ذلك:

هي الأيامُ تَجْمَعُ بَعْدَ بُعدٍ — وَتَفْجَعُ بَعْدَ قُرْب والتِئامِ
خليليّ الهوى خُلُقٌ كريمٌ — تُقصِّرُ عنه أخلاق اللِئامِ
وفاءً إنْ نأت بالجِار دارٌ — ورَعْياً للمَوَّدة والذمامِ[86]

عد شعره من الحكم التي يتداولها المتذوقون، فاختياره للخلان وحبه لهم متصل فيه صدقاً ووفاء منقطع نظير، وهذا ما نجده ماثلاً في أكثر من موقف في حياته الخاصة مع المتوكل وما أنزل بِه من مصادرة وسجن وصلب ونفي، إلا أنه دائم الوفاء، فيرثيه بقصيدة من غرر الشعر، فيها وفاء للصداقة القديمة وإخلاص للعقيدة الراسخة، فهو لم يقابل السفاهة بالسفاهة فلديه نبل وترفع حتى مع الناس من غير الخلفاء ومن بعض الشعراء الذين كان لهم مواقف حادة هجوا فيها الشاعر لقربه من الخليفة كما كان من (مروان بن أبي الجنوب حيث هجاه هجاء فاحشاً مقذعاً، فرد عليه رداً لا فحش فيه[87].

بلاءٌ ليس يُشْبِهُهُ بـلاءٌ
عَداوَةُ غير ذي حَسَبٍ ودينِ
يُبيحُكَ مِنه عِرضاً لم يَصُنْـهُ
ويرتعُ منك في عِرضٍ مَصُونِ[88]

أما قوله حينما حبسه المتوكل وأمر أن يصلب مجرد أن

وصل خراسان فيقول في ذلك شعراً لم يهن منه ولم يتضعضع، إنما أنشد وهو مصلوب لاميته فتراجع خصومه أمام ثباته وصبره فيقول:

لم يَنْصِبُوا بالشاذِياخ صبيحةَ إلا
ثنين مَغْمُوراً ولا مَجهُولاً
نصبوا بحمد الله مِلءَ عيونِهِم
شرفاً ومِلءَ صُدورهم تَبجيـــلا[89]

فقد كان جلداً صبوراً في مواجهة النوائب، حيث نظر إلى نفسه على أنه سيف أعيد إلى قرابهِ وأسدٌ آوى إلى عرينه، وشمس احتجبت وراء أفقها وبدر أدركته السرار، وغيث حبسه الغمام، فيقول:

أو ما رأيتِ الليثَ يأْلَفُ غِيلَـهُ
كِبْراً وأوباشُ السِّبـــــاعِ تَرَدَّدُ
والشمسُ لولا أنها محجوبـةٌ
عن ناظريك لم أضـاء الفَرْقَد
والبدر يُدْرِكُهُ السِّرار فتنجلي
أيامُــــهُ وكأَنَّـــــهُ مُتَجَــــدِّدُ
والغيثُ يَحْصُرُهُ الغَمامُ فما يَرى
إلا وريُقـــــهُ يُـــراحُ ويَرْعُـــدُ[90]

لعل تغير العادات الاجتماعية في العصر العباسي، وبخاصة في الشعر بسبب تصدر موائد الشعراء من غير العرب، قد أفسد البيئة العربية الأدبية والشعرية، مما جعلهم يقبلون على العادات التي يستقبحها قولهم ويتبعون من السلوك ما يتنافر مع تقاليدهم ومروءتهم، فقد جعلوا الخلاعة شعاراًوالمجاهرة بالفاحشة عنواناً، والزندقة معتقداً [91]. تمثل إخلاصه في صدق العلاقة مع الشعراء بعدد من المواقف التي تؤكد محبته الصادقة لمن أحب، فهذا المتنبي"الذي ألف بينهما تماثل السن، وتبادل الإعجاب، واتفاق المشارب وأصبحا أخوين ينتميان إلى أبوة الآداب التي أحلاها محّل أبوة النسب، فعبر عن ذلك شاعرنا بقصيدة رثاه فيها ومنها:

غاضَتْ بدائعُ فِطْنَةِ الأوْهامِ
وَعَدَتْ عليها نَكْبَةُ الأيـامِ
وغدا القريضُ ضئيلَ شخص باكيا
يشكو رَزِّيتَهُ إلى الأقـــلامِ
أودى مُثَقِّفُهُا ورائِضُ صَعْبِـها
وغديرُ رَوْضَتِها أبوُ تَمَّامِ[92]

فكان يجد علاقته مع محبيه، ويخلص في وفائه مصوراً ذلك بأروع صور الجمال والكمال وأن صديقه بمكانة يصعب وصفها، وبموته ينهدم ركن من أركان الإسلام وهو تطاول على الدين كقوله في رثاء عبد الله بن طاهر:

أيُّ رُكن وهى من الإسـلامِ
أيُّ يومٍ أَخْنى على الأيَّـــامِ
سَلَبَتْنا الأيام ظِلاً ظليــلاً
وأباحَتْ حِمىً عزيزَ المـرامِ
لم يَمُتْ والأميرُ طاهر حيٌّ
دائـــمُ الانتقـــامِ والإنعـــامِ[93]

صور العديد من العادات الأصلية والشيم الرفيعة التي اتسم بها المتوكل والتي كانت هدياً صادقاً لخلافته وحكمه، فقال فيه:

وعاقِبةُ الصَبْرِ الجميلِ جميلَةٌ
وأفضَلُ أخلاقِ الرِّجالِ التَّفَضُّلُ
ولا عار أنْ زالت عن الحُرِّ نعمةٌ
ولكنّ عاراً أن يَزولَ التَّجْمُــلُ
وما المالُ إلا حسرةٌ إن تركتَه
وَغنْمٌ إذا قَدَّمْتَهُ مُتَعَجِّـــــــــلُ[94]

حيث لم يكتف بهذا الوصف بل بالغ أشد المبالغة حينما ربط سلامة الخليفة بسلامة الدين وإذا اعتل فالدين عليل، فيقول:

فإذا ما سَلَمتْ فهو سليمٌ
وإذا ما اعتللَت فهو عليـــلُ
فهنيئاً لِلمُلْكِ صِحَّةُ راعِ
ـه وللدينِ عِزُّهُ الْموصـــــولُ[95]

إن الشاعر يتعامل مع لغة سهلة واضحة، لا تعتمد على القوة والامتداد والجزالة، ولكن تعتمد على البساطة في الأداء، فهو لايرسل نفسه إرسالاً، بل يعتمد على الجمل القصيرة في البيت، كما يعتمد على الحشو إضافة إلى عامل التكرار، ونراه يقترب من عالم القص، من خلال سرعة النغمات وتلاحقها، وهذا يتفق مع طبيعة شاعرنا.

تدل هذه الأبيات على قوة الهالة العظيمة التي صور الشاعر بها الخليفة بهذا الربط في السلامة والسقم، لابل نجده يتطاول في المبالغة مقحماً النصوص قدرة فوق قدرتها حينما ربط قبول الصلاة للمسلمين وطاعتهم إلا بعد تزكيته لما يشكله من ميثاق أخذه الله على الناس، فهو هنا في منزلة الأنبياء السابقين وأقرب منزلة، فيقول:

بك تزكو الصلاةُ والصوُم والحـ
جُ ويزكو التسبيحُ والتَّهليلُ
وإذا ما نَصَرْتَ شيئاً فمنصو
رٌ وإلا فخائِنٌ مخـذُولُ[96]

لقد اصطفى الشاعر العديد من الخلال الاجتماعية وخلعها على المتوكل، فنعته بعراقة الأصل، وحب الخير، وقوة البأس، وشدة الوطأة على الأعداء، ومما قاله في ذكر مفاخر آبائه في

الجاهلية ومآثرهم في الإسلام، قوله:

من كان مجهولَ المكانِ فإنما
منازلكم بين الحَجُونِ إلى الحجْرِ
وما زال بيتُ اللهِ بين بيوتكم
تَذُبُّـــونَ عنه بالمهَّـندة البُتْـرِ [97]

أما عن سخائه وكثرة بذله على الناس، فقال فيه:

فَتىً تَسْعَدُ الأَبْصارُ في حُرِّ وَجْهِهِ
كما تَسْعَدُ الأَيْدي بنائِلةِ الغَمْرِ
وَفَرَّقَ شَمْلَ المالِ جُودُ يمينـه
على أَنَّهُ أبقى له أَحْسَنَ الذِّكرِ
ولو قُرِنَتْ بالبَحْرِ سَبْعَةُ أبحُرِ
لما بَلَغَتْ جَدوى أنامِلِهِ العَشْرِ
ولا يَجْمَعُ الأموالَ إلا لبَذلِها
كما لا يُساقُ الهَدِيُ إلا إلى النَّحرِ [98]

فالمبالغة ظاهرة في الأبيات السابقة بخاصة حينما صور هذا السخاء والبذل الذي زاد في حجمه وقيمة ما تحويه ثمانية أبحر، فهذه الصفات كانت أصيلة في كل إنسان مسلم، فما بالنا ونحن نتحدث عن خليفة جمع بين الكرم والسخاء جانب العطاء والمحبة والرحمة واللين إضافة إلى البأس والقسوة حتى تهابه الناس والملوك ويحقق رسالته التي بعث من أجلها، فيقول في ذلك:

نحن في ظلِّ أرْحَمِ الناس بالنا
س وأولاهـم ببأسٍ وجــودِ
صفوةُ الله وابن عم نبيّ اللـ
ـه وابن المهديِّ وابن الرشيدِ [99]

إن الشاعر صال وجال في وصف خلال المتوكل الاجتماعية، تأكيداً منه على قدرته العقلية والأدبية والدينية في خلافة الأمة الإسلامية، فهو بحر من التسامح والجود نبع من الأخلاق والصفات الحميدة، نور في مسلكه وتعامله، شمس في محبته لأهل السنة، فهو وإن توقف في ذكر خلاله الخليفة لم يغفل ما به من خلالٍ خلقية، فيقول فيه:

يُضيءُ لأَبْصارِ الرِّجال كأنـه
صَباحٌ تَجَلى يَزْحَمُ اللّيلَ مُقبِــلُ
تَأَمّلْ ترى لله فيه بدايِعـاً
مِنَ الحُسْنِ لا تَخفى ولا تَتَبَّــدلُ
فَنَضْرَةُ وجهٍ يَقْصُرُ الطَرفُ دونَهُ
وطرفٌ وإن لم يألفِ الكُحلَ أَكْحَلُ [100]

تجلت في هذه المقطوعة براعة الشاعر وقدراته الفنية من خلال الصور البديعة التي تألق فيها حينما وصف الخليفة وجماله وحسن بشرته وبديع صنعه، إنه الله الذي قال في كتابه العزيز:"لقد خلقنا الإنسان في أحس تقويم"[101]. فصفاته الخِلقية وإن كانت لا تقل عن البحور غزارةً وعن الشمس ضوءاً إلا أن عقله وفكره ولسانه الذي جمع من صفات البلاغة وحوك الكلام ما جعل المنابر تشتاق إلى سماعه، فتعد ظفرها به غنماً لا يعدله غنم، يقول:

وأَخَطبُ النّاسِ على مِنْبَرِ
يَخْتالُ في وطأَتِهِ المِنْبَرُ [102]

إن هذه الصفات التي تتجلى فيها صورة الخليفة تدل على عمق الموازنات التي عقدها الشاعر بينه وبين الشمس والبحر والبدر، كما نجد دائماً كفة الممدوح هي التي ترجح، وهذا لون من التشبيه المقلوب، فيه طرافة مميزة، فيقول:

وقائلٍ أيهما أنـْوَرُ
الشّمْـسُ أَمْ سَيِّدُنـــا جَعْفَــرُ
قُلْتُ لَقَدْ أكبرت شَمْسَ الضُحى
جَهْلاً وما أَنْصَفْتَ من تَذْكُرُ [103]

إننا ونحن نتحدث عن المجتمع العباسي ونقلب في صفحات خلاله الاجتماعية، نجد الحب والهوس في طليعة هذه الخلال التي تعد علامة على رجحان الهم وآية على الثراء والجاه فمن مفاخرته بالحب قوله:

خليليّ ما أَحلى الهوى وأَمَـرَّهُ
وأَعلمني بالحــــلوِ منه وبالمـــرِّ
بما بيننا من حُرمةٍ هل رأيتما
أرقَّ من الشكوى وأقسى من الهجرِ [104]

وقوله أيضاً في ذاته بعد سجنه من صفات الفتوه والظرف، والرجولة والمجد التي يكبرها المجتمع، فيقول:

ما عابَهُ أن بُزَّ عنه لِباسُـهُ
فالسَّيفُ أهوَلُ ما يُرى مسلولا
إن يُبْتذل فالبدرُ لا يُزري به
أن كان ليلــــةَ تِمِّهِ مبــذولا [105]

وقوله أيضا:

سأصْبِرُ حتى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَنَّي
أخوُه الذي تُطوى عليه جوانِحُه [106]

وفي الصبر نفسه قال أيضاً:

ما أَحْسَنَ الصَّبرَ ولا سِيَّما
بالحُرِّ إنْ ضاقتْ به الحالُ
يَشْهَدُ أعدائي بأني فتَـىً
قَطْاعُ أَسْبابٍ ووصـَّـــالُ
لا تملك الشدة عزمي ولا
يُبْطِرني جاهٌ ولا مالُ [107]

فصبره لم يكن حائلاً دون تصوير مروءته التي تقل العثرات

وترد اللهفات ونجدته التي تفرج الكرب وتدفع الضر والشر، وكرمه الذي يجعل المال نهباً للضيوف، يقول:

وَمِنْ هِمَمِ الفتيان تَفْريجُ كُرْبَـةٍ
وإطلاقُ عانٍ بات والبؤس فادِحُـهْ
وضيفٍ تخَطى الليلَ يسألُ مَنْ فتىً
يُضيف فَدَلَّتْـــهُ عليه نوابِحُـــــهُ
ولهفةِ مظلومٍ تَمَنّاكَ حاضِراً
وقد ذُعِرَتْ أسرابُهُ وسوارِحُهُ [108]

لقد أبدع الشاعر خير إبداع في وصف ملمح اجتماعي بارز تمثل في الطبيعة الصامتة التي بث فيها الحركة ومنحها الحياة والإرادة، فحولها إلى أناسي تتصف بكل ما يتصف به الإنسان من خلالِ الخير والجمال، ترسم في ذلك خطى الأقدمين دون أن يحدث تبديلاً يذكر في أسلوبهم أو صورهم أو طريقة أدائهم، فنجده يصف القصر ونخيله الذي داعبته الأنسام فأخرجت من حفيف سعفه أشجى الأنغام، فيقول:

وَسَطْحٍ على شاهِقٍ مُشْرِفٍ
عليه النَّخيلُ بأثمارِهـــــا
إذا الرِّيحُ هَبَّتْ لها أسمعت
غِناءَ القيانِ بأوتارِهـــــا[109]

وكذلك حديثه عن السحابة التي شبهها بفتاة شابة تقودها أم عجوز مولهه هي ريح الصبا، فقال:

أتتنا بها ريحُ الصَّبا وكأنّها
فَتاةٌ تُزَجِّيها عجوزٌ تَقودُهُـــــا
تميسُ بها مَيْساً فلا هي إن وَنَتْ
نَهَتْها ولا إنْ أسْرَعَتْ تَسْتَعيدُها[110]

أما الجزء الثاني من مفردات الطبيعة ما قاله في الورد الذي يبث الحياة ويملأ النفس بحب الجمال، فيقول:

لم يَضْحكِ الوَرْدُ إلا حينَ أعْجَبَه
حُسْنُ النَّبات وَصَوْتُ الطائِرِ الغَرِدِ
بدا فأبْدَتْ لنا الدُّنيا محاسِنهَا
وراحَتِ الرَّاحُ في أثوابِهـــا الجُـدُدِ[111]

وعن تجلياته في إبداع صورة الوصف الرائعة والتي تمثلت في مجالس اللهو وما داخلها من طرب وصخب، واختلاط للأنغام بالأنغام، خلع الندماء أردية وقارهم فلم يخش بعضهم بعضا، فهم على اختلافهم في الأنساب أخوة لأم واحدة هي المدام أرضعتهم من ثدي الكأس، يقول:

واللهْوُ يُلْحقُ مَغْبُوقاً بِمُصْطَبِحٍ
والدَّوْرُ سيَّـــان مَحْثُوثٌ وَمُنْتَخَـبُ
وَكُلمّا انسكبت في الكأس آنيَةٍ
أقسُمْتُ أَن شُعاعَ الشمسِ ينسَكِبُ
والقوْمُ إخوانُ صِدْقٍ بَيْنَهُم نَسَبٌ
مِنَ المَوَّدَةِ لم يُعْدَلْ به نَسَب[112]

فدور القيان وجمالها والشرب ولذته لا يقل سبكاً في وصف لذاته بعد تعرضه لمحنة السجن من خصومه الذين ملأت الشماته نفوسهم فلا يسبهم ولا يهجوهم، ولا يتأفف ولا يتضجر، إنما يتحدى الوحدة ويمدح السجن، فهو البيت الذي يزورك فيه الناس دون أن تكلف نفسك زيارتهم والموطن الذي يتخلص فيه المرء من ذل بلاط الخلفاء، ويكرم فيه نفسه عن حجبهم وحجابهم، يقول:

والحبسُ ما لم تَغْشَهُ لدنيـةٍ
شنعاء نْعــمَ المَنْزلُ المُتَـــوَرَّدُ
بيتٌ يُجَدِّد للكريم كرامـةً
ويُزارُ فيه ولا يَزورُ وَيُحْفَـــــدُ
لو لم يَكُنْ في السجن إلاّ أنَّهُ
لا يَسْتَذِلكَ بالحِجابِ الأعبُدُ [113]

مقومات فنية:

لأن ابن الجهم شاعر مطبوع متمكن من فنه الشعري، فقد كان من أظهر خصائص شعره –على حد تعبير محقق ديوانه خليل مردم بيك [114] الطبع والجزالة وتأدية المعنى على أوضح السبل وأيسرها، وفي شعره يقل التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، وما يقتضي إدامة النظر وإعمال التفكير، وهو فوق ذلك كله بصير بحدود الكلام، مقتصد في تشبيهاته، واستعاراته، ومن أقل شعراء عصره صنعة، وما يعرض من الصنعة في شعره فمن غير قصد منه أو تكلف له.

ومن الواضح أن الصورة الشعرية لديه قريبة التناول، سهلة المأخذ، واضحة الدلالة، غزيرة الإيحاء، ومن ينعم النظر في تصاويره الفنية –على قلتها – يجد جملة من المقومات التي استندت إليها مثل هذه الصورة وقامت عليها، لعل أوضحها وأقربها: الإيحاء والتكثيف الدلالي والحوارية والموسيقية والملاءمة والكنايات وبعض ألوان البديع وخاصة الجناس...

ولك أن تستمع إليه وهو يمدح الخليفة المعتصم بالله:

وأنْتَ خَليفَةُ اللّه المُعَلىّ
على الخُلَفاءِ بِالنِّعَمِ العِظامِ [115]

لتجد كم تثير كلمات هذا البيت من إيحاءات ومشاعر، ف (خليفة الله)توحي بمعاني المهابة والجلالة والعظمة والتسامي والاستعلاء، وتسقط ذلك الوصف الجليل المهيب على الخليفة نفسه لتجعله حقا إلهيا ليس من حق أحد أن ينازعه إياه، أو أن يشكك فيه... و(المعلى) تفرد الخلية بالشموخ والرفعة والعلو، فلا يكاد يعلوه غيره، وهو فوق كونه الأعلى خليفة في الأرض، فهو الأعلى كذلك بموجب إعلاء الله له واصطفائه لخلافته بما

حباه من النعم العظام التي لم تتيسر لغيره من الخلفاء حتى خلفاء بني العباس أنفسهم الذين كان الشاعر يرى فيهم أولى بميراث النبي (صلى الله عليه وسلم) من سواهم وأحق به، فهم وإن كانوا شركاء المعتصم بهذا الميراث إلا إنه قد تفرد دونهم بهذا الوصف والعلو الذي أوحت به كلمة (المعلى)...إنه يقول:

لَأَنْتُم يا بَني العبَّاسِ أَولى
بِميراثِ النبـــيِّ منَ الأَنـــــامِ
تُجادِلُ سُورَةُ الأَنْفالِ عنكم
وفيها مَقْنَعٌ لِـذَوي الخِصـــامِ[116]

فميراثهم ثابت بالوحي، ومؤيد بالقرآن، ولك أن ترصد سيل هذه الإيحاءات النفسية المتتابعة من هذه المجادلة اللطيفة العجيبة، والتي حاول ابن الجهم تقديمها في صورة استعارة مكنية مرشحة حين شبه سورة الأنعام بإنسان عالم يجادل عن حقهم، ويدفع عنهم تهم خصومهم.

وهي صورة تتكرر مرات عديدة، ففي معرض مدحه للواثق نلحظ مثل هذا الإيحاء المشاعري ألثر، والذي جاء في ثوب محلى بجناس الاشتقاق، فهو يقول:

وَثِقَتْ بالمَلِكِ الوا ثِقِ باللّه النُّفوسُ[117]

فالملك لها دلالتها وإيحاءاتها الخاصة، وهو ليس مجرد ملك، إنه الواثق بالله، ومن كان واثقا بالله فحريٌّ به أن تثق به النفوس، وهي ذات علوقه، وناهيك عما للفظة (النفوس) من إيحاء وإثارة تجعل من الممدوح محبوبا، وهو حب ما كان ليتولد لولا الثقة، وأية ثقة؟ إنها ثقة النفوس، حين عادت بعد تولدها لتنتج ثقة محبةٍ ومعزةٍ وإجلالٍ وإكبار.... ففيها إشارة قربه من النفوس، وتعلق هذه النفوس به، وإعزاز أصحابها له.

ومن تشبيهاته الرائقة ما نلمسه في وصف سحابة تطرق بغداد ليلا فلا تبرحها حتى تتفجر أوديتها، وتغرد طيورها، وتكتسي معالمها بحلل من النور أشكالاً وألواناً، وكأنها عروس تتهادى للقاء عرسها وقد ازينت بالوشي والبرود:

فما بَرِحَتْ بَغْدادُ حتى تَفَجَّرَتْ
بِأَوْدِيَـــــةٍ ما تَسْتَفيقُ مُدودُهـــا
وَحتى رأَينا الطيرَ في جَنَباتِها
تَكــادُ أَكُفُّ الغانياتِ تَصيدُهـــا
وَحتى اكتَستْ مِنْ كلِّ نَوْرٍ كأَنَّها
عَروسٌ زَهاها وَشْيُها وَبُرُدُهــا[118]

أو كأنها فتاة تدفعها برفق عجوز تقودها:

أَتَتْنا بها رِيحُ الصَّبا وكأَنَّها
فَتاةٌ تُزَجِّيها عجوزٌ تَقُودُهــا
تَميسُ بها مَيْساً فلا هيَ إنْ وَنَتْ
نَهَتْها ولا إنْ أَسْرَعَتْ تَسْتَعيدُهــا[119]

فريح الصباح أشبهت عجوزاً، والسحابة فتاةً ، ويا لها من فتاة محظوظة تدفعها دفعاً هيناً رقيقاً رفيقاً عجوزٌ هي ريح الصبا بتؤدتها ورقتها وخفتها وكأنها أمها تحنو عليها، وترنو بوجه فرح إليها.

والصورة متتابعة في معظم قصائده، إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد ديوانه من هذه التشبيهات الرقيقة والاستعارات البليغة والكنايات الطريفة والتي شكلت لديه عنصر الخيال أو التخيل، فأطل من خلاله على ألوان كثيرة من منابع الحس والشعور والجمال... وأشرف على مسافات فسيحة من أفانين القول المضمن والمُجَمَّل بالرغائب والمشاعر والإيحاءات ليشكل نمطاً فنياً تصويرياً متفرداً بما يزخر فيه من ضروب اللون والحركة والانفعالات...

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن علي بن الجهم شاعر من الشعراء الذين امتازوا بصفة عامة وتجربة خاصة، إذ نراه يقول ما يقوله شعراء عصره ولكنه يبتكر المعاني والألفاظ ابتكاراً، يثير في نفوس سامعيه انفعالاً واضحاً مع تجربته الأخرى وهي السجن.

إن تجربة الشاعر في سجنه قد منحته طاقة فكرية وذهنية متوقده، جعلته ناقماً على المجتمع ومن فيه، فأصداء هذه التجربة كانت ماثلة في أقواله ومرآة صادقة عكست نفسية الإنسان العباسي على السلطة الحاكمة، كما خلصت الدراسة إلى أن الشاعر قد تناول موضوعات الصورة بالاعتماد على القضايا الفكرية أولاً والاجتماعية ثانياً، ثم راح يزاوج بينها ليخرج لنا صوراً حية نابضة بالفكر الديني والاجتماعي والسياسي والفني وهذا ما ميز علي بن الجهم عن سائر الشعراء في عصره.

الهوامش

(1) نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، ط1، 5.
(2) الجاحظ، الحيوان، ط2، 4/131-132.
(3) العلوي، عيار الشعر، ط1 23.
(4) العسكري، الصناعتين، 246-247.
(5) هلال، النقد الأدبي الحديث، 242.
(6) ينظر ترجمته، الأصفهاني، الأغاني، ط2، البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، (ا/ 240)، المرزباني، معجم الشعراء، ط1، 286، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 3/39، الباشا، ابن الجهم حياته وشعره، علي بن الجهم، ديوانه، ط2، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 5/ 255، ابن كثير، البداية والنهاية، ط3، مجلد 5، 10/303.
(7) علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، 41.
(8) حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، 19.
(9) حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، 17.
(10) علي بن الجهم، ديوانه: 14.
(11) الزبيدي، دراسات في الشعر العباسي، ط1، 74.
(12) السيد، الاتجاهات الأدبية في العصر العباسي، 35.
(13) علي بن الجهم، ديوانه: 117.
(14) علي بن الجهم، ديوانه: 57.
(15) علي بن الجهم، ديوانه: 220.
(16) الزبيدي، دراسات في الشعر العباسي: 70.
(17) علي بن الجهم، ديوانه: 28 - 31.
(18) علي بن الجهم، ديوانه: 30 - 31.
(19) مطلوب، الصورة في شعر الأخطل الصغير، 35.
(20) علي بن الجهم، ديوانه: 32.
(21) علي بن الجهم، ديوانه: 52-53.
(22) الزبيدي، دراسات في الشعر العباسي: 74.
(23) علي بن الجهم، ديوانه: 114-116.
(24) الزبيدي، دراسات في الشعر العباسي: 75.
(25) الأصفهاني، الأغاني 10/389.
(26) علي بن الجهم، مقدمة الديوان: 8.
(27) خليل، دراسات في الأدب العباسي، ط1، 46.
(28) علي بن الجهم، ديوانه: 7.
(29) علي بن الجهم، ديوانه: 9.
(30) سورة النساء: آية 59.
(31) علي بن الجهم، ديوانه: 12.
(32) علي بن الجهم، ديوانه: 12.
(33) علي بن الجهم، ديوانه: 17.
(34) علي بن الجهم، ديوانه: 11.
(35) الجواري، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، 90.
(36) علي بن الجهم، ديوانه: 25.
(37) رينة ويلك واستن دارين: نظرية الأدب، 194.
(38) علي بن الجهم، ديوانه: 25.
(39) الجواري، الشعرفي بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري: 94.
(40) خليل، دراسات في الأدب العباسي: 57.
(41) علي بن الجهم، ديوانه: 34.
(42) علي بن الجهم، ديوانه: 76.
(43) علي بن الجهم، ديوانه: 74.
(44) سورة المدثر، آية 50.
(45) علي بن الجهم، ديوان: 73.
(46) سورة آل عمران، آية: 160.
(47) علي بن الجهم، ديوانه: 163-164.
(48) علي بن الجهم، ديوانه: 75.
(49) علي بن الجهم، ديوانه: 39.
(50) علي بن الجهم، ديوانه: 39.
(51) هداره، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، 377.
(52) سورة الأنفال، آية: 75.
(53) علي بن الجهم، ديوانه: 40.
(54) علي بن الجهم، ديوانه: 26.
(55) علي بن الجهم، مقدمة الديوان: 20.
(56) الزبيدي، صلاح مهدي: دراسات في الشعر العباسي: 47.
(57) علي بن الجهم، ديوانه: 19.
(58) علي بن الجهم، ديوانه: 173.
(59) علي بن الجهم، ديوانه: 258.
(60) علي بن الجهم، مقدمة الديوان: 21.
(61) الأصفهاني، الأغاني: 10 / 393.
(62) علي بن الجهم، ديوانه: 180.
(63) علي بن الجهم، ديوانه: 259.
(64) ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، ط2، 256.
(65) علي بن الجهم، ديوانه: 74.
(66) سورة المدثر، آية: 50.
(67) علي بن الجهم، ديوانه: 27.
(68) سورة الأنبياء، آية: 105.
(69) علي بن الجهم، ديوانه: 174.
(70) سورة الفرقان، آية: 42.
(71) علي بن الجهم، ديوانه: 6-7
(72) الباشا، علي بن الجهم حياته وشعره: 103.
(73) الباشا، علي بن الجهم حياته وشعره: 174.
(74) علي بن الجهم، ديوانه: 34
(75) علي بن الجهم، ديوانه: 11.
(76) سورة الأنفال، آية: 75.
(77) علي بن الجهم، ديوانه: 70.
(78) اسماعيل، الأدب وفنونه، ط7، 144.

(79) علي بن الجهم، ديوانه: 16.
(80) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 287/5.
(81) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط3، 10/4.
(82) علي بن الجهم، ديوانه: 244.
(83) علي بن الجهم، ديوانه: 62.
(84) علي بن الجهم، ديوانه: 59-61.
(85) علي بن الجهم، ديوانه: 137.
(86) علي بن الجهم، ديوانه: 5.
(87) الأصفهاني، الأغاني: 10/ 385.
(88) علي بن الجهم، ديوانه: 187.
(89) علي بن الجهم، ديوانه: 171.
(90) علي بن الجهم، ديوانه: 42.
(91) الشكعة، مرحلة الشعر من الأموية إلى العصر العباسي، مرحلة الشعراء المخضرمين، ط 1، 171.
(92) علي بن الجهم، ديوانه: 181.
(93) علي بن الجهم، ديوانه: 182-183.
(94) علي بن الجهم، ديوانه: 163.
(95) علي بن الجهم، ديوانه: 24-25.
(96) علي بن الجهم، ديوانه: 25.
(97) علي بن الجهم، ديوانه: 255.
(98) علي بن الجهم، ديوانه: 222.
(99) علي بن الجهم، ديوانه: 34.
(100) علي بن الجهم، ديوانه: 165.
(101) سورة التين، آية: 4.
(102) علي بن الجهم، ديوانه: 72.
(103) علي بن الجهم، ديوانه: 71.
(104) علي بن الجهم، ديوانه: 252.
(105) علي بن الجهم، ديوانه: 172.
(106) علي بن الجهم، ديوانه: 65.
(107) علي بن الجهم، ديوانه: 68.
(108) علي بن الجهم، ديوانه: 65.
(109) علي بن الجهم، ديوانه: 30.
(110) علي بن الجهم، ديوانه: 57.
(111) علي بن الجهم، ديوانه: 89.
(112) علي بن الجهم، ديوانه: 105.
(113) علي بن الجهم، ديوانه: 45.
(114) لي بن الجهم، ديوانه: 31.
(115) علي بن الجهم، ديوانه: 9.
(116) علي بن الجهم، ديوانه: 11.
(117) علي بن الجهم، ديوانه: 13.
(118) علي بن الجهم، ديوانه:57-58.
(119) علي بن الجهم، ديوانه:57.

المصادر والمراجع

القران الكريم

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي: لكامل في التاريخ، ط دار صادر، بيروت، 1982.

إسماعيل، عز الدين، 1978، الأدب وفنونه، ط دار الفكر العربي، القاهرة، ط7.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، ط دار إحياء التراث، بيروت، ط2، 1997.

البغدادي، أحمد بن علي الخطيب، د.ت: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

الباشا، عبدا لرحمن، د.ت: علي بن الجهم حياته وشعره، ط دار المعارف، مصر.

الجواري، أحمد عبد الستار، 1956، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط دار المكشوف، بيروت، ط1.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، 1969، ط دار الكتاب العربي، بيروت، ط2.

حسن عبد الله، محمد، 1981، الصورة والبناء الشعري، ط دار المعارف، مصر.

خليل، ياسين عايش، 2010، دراسات في الأدب العباسي، ط دار الفكر، عمان، ط 1.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، 1970، ط دار صادر، بيروت.

رينه ويلك واستن دارين: نظرية الأدب، ترجمة محمد محي الدين صبحي، 1987، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

الزبيدي، صلاح مهدي، 2004، دراسات في الشعر العباسي، ط عمان، ط1.

الشكعة، مصطفى، 1973، مرحلة الشعر من الأموية إلى العصر العباسي، مرحلة الشعراء المخضرمين، ط دارالنهضة العربية، بيروت، ط 1.

ضيف، شوقي، 1973، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، ط دار المعارف، مصر، ط2.

العسكري، أبو هلال، د.ت، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط مصر.

علوان، علي عباس، د.ت، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

العلوي، ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، 1982، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

علي بن الجهم، ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، 1980، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق أحمد

أبو ملحم وآخرون، 1987، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، مجلد 5.
المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، 1960، ط دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط 1.
المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد، 1958، ط المكتبة التجارية الكبرى، مصر ط3.
مطلوب، أحمد، د.ت، الصورة في شعر الأخطل الصغير، ط دار الفكر، عمان.
نافع، عبد الفتاح صالح، 1983، الصورة في شعر بشار بن برد، ط دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط1.
هلال، محمد غنيمي، د.ت، النقد الأدبي الحديث، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.
هدارة، محمد مصطفى، 1963، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، ط دار المعارف، مصر.

The Elements of Imagery in Ali Bin Al Jahm's Poetry

Abbas Al-Masri*

ABSTRACT

This research studies the imagery in the poetry of Ali bin Al-Jahm, as it sheds light on these elements and their relations with each others. This study also highlights the fundamentals of cultural, religious, social, technical and political influences that shape his poetry, and then turns on the language used in these components, which granted the "image" momentum rhetorical strength that harmonizes with words and meanings which the Poet comes up with. The elements of imagery in Ali Bin Al Jahm's poetry characterized him as distinctive from other poets in his period.

Keywords: Ali Bin Al-Jahm, Poetry, Imagery.

* Arabian American University, Jineen, Palestine. Received on 10/10/2011 and Accepted for Publication on 19/1/2012.